علل المجتمع المصرى

للدكتور محمد صبرى

لكل مجتمع علله وآفاته ، ولكننا إذا استعرضنا علل المجتمع الأوربى كانت هذه العلل خاصة بمجتمع قد تهيأت له جميع المشخصات القومية ، وتجلت مظاهر القوة ومظاهر الضعف فيه . أما المجتمع المصرى ، فهو مجتمع فى طور الانتقال ، وقد بدأت مرحلة الانتقال هذه منذ بداية القرن التاسع عشر ، ولم تنته إلى اليوم ، فى حين أن شعباً كالشعب اليابانى قطع فترة الانتقال فى سنوات .

فما لاشك فيه ، مثلاً ، أن اللغة قد قطعت شوطاً فى طريق التقدم والدقة والمرونة ، فتركنا السجع والإطناب وما إليهما ، ونحت الكتاب ألفاظاً جديدة ردت إلى اللغة شبابها وبهاءها ، ولكن اللغة لا تزال بعيدة من غاياتها ، ولا تزال فى حالة انتقالية ظاهرة ، كما لا يزال تعليمنا العالى فى الأزهر والجامعة ، وكذلك محاكمنا وقوانيننا مزيجاً من تعاليم القرون الوسطى والعلم الحديث ، كما أن حركتنا النسائية يتجاذبها عامل الرجعية والعزلة والجمود من ناحية ، وعامل الطفرة والمطالبة بإلغاء نون النسوة من ناحية أخرى .

ومعلوم أن كل حركة تتجاذبها عوامل متضادة ، ولا تجد قادة يدفعونها بقوة فى طريق الانتقال والتجديد ، لا بد أن تضطرب فى سيرها ، وأن تتعثر وتتباطأ ويختل نظامها .

وهذا الاضطراب ، أو التردد ، يتصور جميع حركاتنا الاجتماعية ، لأن قادة الرأى يختلفو الأمزجة ووجهات النظر ، ولم نسمع مرة أن مفكرينا وضعوا أساساً ثابتاً لإقامة أى إصلاح ؛ بل يغتبط كل منا ، وكل منا مطبوع على الأنانية وحب التفرد والظهور بأنه صاحب المشروع الفلانى ، فيجب أن يسجل التاريخ باسمه — فرداً كان أو حزباً — ذلك المشروع . أما كيف يدرس المشروع ، وكيف ينفذ ، وهل ينفذ دفعة واحدة ، أو على مراحل ، وهل يراعى فى تنفيذه الحال والمستقبل ، وارتكازه على قواعد من البيئة والظروف ، فهذا كله فى المحل الثانى

وها نحن أولاء قد أنشأنا جامعة فؤاد فى القاهرة ، ثم أنشأنا جامعة فاروق فى الأسكندرية ، ونفكر فى إنشاء جامعة ثالثة فى أسيوط دون أن نتأكد من أن أولاها بلغت الكمال كله أو بعضه ، وحققت أغراضها فى خدمة العلم الصحيح . وقد أنشأنا فى إحداها صالة احتفالات بلغت تكاليفها ، فيما يقال ، مائة وأربعين ألفاً من الجنيهات ، بينما يشقى بعض علمائنا وأدبائنا الأعلام فى الجرى وراء القوت اليومى ، ولا يجد بعض طلبة العلم ما يسدون به رمقهم فى بعثة علمية منزهة عن المحسوبية وما إليها .

والواقع أن علتنا وآفاتنا كثيرة نشأ معظمها من الاستعباد وطول عهوده ، وقد أصبحنا وفينا مركب الشعور بالنقص Complexe d' infériorité وهذا واضح جلى فى « معاملات » المصريين والأجانب ، وما بقيت هذه العلة بغير علاج حاسم فستظل « الامتيازات » فى نفوسنا وأخلاقنا وإن تكن قد محيت فى الورق والمعاهدات

وقد أصبحت هذه الحالة مدعاة لليأس والتشاؤم؛ ففريق من المصريين يقول : إنه لا أمل فى إصلاح هذا الشعب . وفريق من الأجانب ، وعلى رأسهم المؤرخ الكبير جيرائيل هانوتو ، يقولون : إن مصر لا غنى لها عن الأجانب ، وإن مركزها الجغرافى إلى جانب ذلك يفرض عليها قبول سيطرة الدولة التى تهيمن على البحر الأبيض ، أى قبول الاستعباد فى شكل من أشكاله

وقد أخطأ الفريقان فى نظرهم وتشاؤمهم ، ويرجع ذلك الخطأ إلى أنهما قد أصدرا حكمهما على الشعب المصرى باعتباره قد استكمل أداته للكفاح ، وأخذ أهبته وجرب وكبر واستقر ، وبعبارة أخرى قد قطع مرحلة الانتقال وظهرت ملامح شخصيته الثابتة من حسنات وعلل وعورات

ولو أنهما انتبها إلى أن حالة مصر اليوم لا تزال حالة انتقالية ، وأن بعض العلل التى تراها ليست من العلل « المزمنة » ، وقد تكون غريبة عن جوهر الخلق المصرى الصحيح ، وأنها إذا عولجت انتفت عنه ، وزالت كما يزول كل عَرَض ، أقول لو أنهما انتبها إلى ذلك لفهما أن تشاؤمهما أكبر خطر يتهدد الفكرة الإصلاحية بل وكل فكرة تطمح إلى المُثُل العليا ، والسير بالبلاد إلى أبعد الغايات .

محمد صبرى